هوامش ومقدمات
حول أول قصة خليجية

د/سليمان الشطي*

في عام ١٩٢٨ اصدر المرحوم عبد العزيز الرشيد أول مجلة في الكويت ، و في العدد الثاني منها صدرت **اول قصة خليجية للمرحوم خالد الفرج** . وقد ظلت شهادة ميلاد هذه القصة تحت أكوام الغبار ، وهي أحوج ما تكون الى الوقوف والتأمل . وليست هذه الدراسة الاولية الا هوامش ومقدمات لهذه التجـــربة الفريدة ، والتي مثلت ولادتها بدء نشأة القصة في أدب الخليج الحديث (١) ..

ان اول مقدمة تشدنا هي التوقف عند جذور الاحساس بجدوى هذا الشكل القصصي ، ومحاولة فهمه ، وتلمس عناصر القبول عند المتلقين حتى يكتسب هذا الشكل مشروعيته من خلال هذا القبول فالانطباع فالاقتناع .

قد لا يتطرق الوهن الى جدوى الفكرة القائلة ان التلقي الاول للشكـــل القصصي التصق بالماضي ، فوجد قبولا اوليا قبل الممارسة الجدية ، فهو لا يصادم التقليد الادبي الموروث ، فالتراث العربي ، قد استخدم هذا الشكل استخدامات شتى فجعل مبررات القبول قائمة ، وعندما نتخيل مثقفا عربيا في اوائل هذا القرن وقد التقى بهذا الفن الغربي وبالمحاولات الاولى لتقليده فينقب بذاكرته فيجد :

* ان العرب صاغوا قسما كبيرا من تاريخهم في صورة قصصية ، وأن حياة العرب الاولين تحولت الى قصص تملأ الكتب القديمة ، فأصبحت الشخصيات

---

* يعمل مدرسا للنقد في قسم اللغة العربية بجامعة الكويت .
– حصل على الدكتوراة من جامعة القاهرة عام ١٩٧٨ .
– عضو في عدد من المؤسسات الثقافية .

من مؤلفاته :

– كتاب الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ .
– مجموعة من القصص القصيرة عن (الصوت الخافت) .

التاريخية نماذج فنية امتزج الواقع فيها بالخيال وتحول الرواة الاوائل قصاصا يحكون الحوادث في هذا الثوب المتميز .

* ورأى ، هذا المثقف ايضا ، كيف أن التراث العربي القديم قد يخرج عن القص التاريخي والواقعي والمباشر الى الخيال ، فاستغل التراث الشعبي هذه الشخصيات ليصوغ من خلالها أحلامه وقضاياه ويجد فيها تسليته ، فهناك شخصية عنترة الخارقة ، وهناك ابو زيد الهلالي ، وآخر وآخر ، واذا بألف ليلة وليلة تمتص كل هذا لتحوي في داخلها عالما كاملا عجيبا في خياله وابداعه .

* ورأى ايضا انه اذا كان بعض هذه القصص قد انحدرت الى قاع الثقافة والمتعة ، فانه في الزوايا الاخرى تقف القمم الفكرية المسلم لها بالقيادة تقلل من حدة هذا الهبوط ، ففي مجال الابداع والمبدعين نجد القائمة التي تسترسل ابتداء من **ابن المقفع** ، الاسم الكبير الذي ارتبط اسمه بشكل من اشكال القص — كليلة ودمنة — **والجاحظ** من فوق ذروته يداعب اصحاب الشح والبخل ، — اهل التدبير والاقتصاد كما زعموا — بل وتتعدد عنده صور التناول كما في الحيوان وغيره .

* **ثم يأتي الدخول الاكبر في هذا المضمار عن طريق المقامة** ، التي احتضنت اهم تلك المحاولات وطورتها ، فاصبحت شكلا متميزا واصيلا في هذا التراث ، حتى ان اولى محاولات المحدثين اتجهت لها متخذة من شكلها سبيلا الى القصة كما فعل كل من اليازجي والمويلحي .

هل ثمة حاجز يمنع القناعة عند اكثر العقول جمودا وهي ترى ان الفلاسفة الاقطاب — ابن سينا والسهروردى وابن طفيل[٢] — يجدون في القصة شيئا مغريا بالمحاولة .

ليس الذي نذكر تاريخا للعرض ولكنه تفسير لمعنى هذا القبول المبكر لهذا الفن ، حتى ان عالما دينيا ومؤرخا مصلحا هو الاستاذ عبد العزيز الرشيد يحتفي هذا الاحتفاء الواضح بهذه التجربة ، فالقبول في النفس قائم لانه منحدر عن ذلك الاحساس القديم بهذا الشكل .

لقد صافحنا تحمس عبد العزيز الرشيد الذي لم يكتف بالترحيب نشرا ، فتجاوزه الى ابراز هذه المحاولة مع التنويه بها ، ومرد هذا كله احساسه بهذا الجنس الادبي الذي استطاع ان يجسد بهذا الاسلوب الفني احدى مرتكزات الدعوة الاصلاحية التي كان يقودها هذا الرجل الفذ . لذلك تلفت نظرنا اشارته الى انها رواية مفيدة تصور الويلات التي يجرها اولئك الدجالون على السذج والبله من الناس ، ثم تلمس نظرته الدقيقة الى جوهر الموضوع حيث لاحظ ذلك

الجانب الاصلاحي الذي تحمله فكرة القصة ، **فقد راى فيها حربا على الدجالين المستغلين للسذج من الناس تحت شعار الصلاح والدين** ، ويستطرد في هذا الجانب مبينا ان نشره لها انما هو نشر للسان صادق ناطق بالحق ، ان هذا القبول والمشفوع بهذا الفهم يكفينا من هذا الدور المبكر .

ونأتي الان الى مبدع التجربة الاولى : **خالد انفرج** (ت ١٩٥٤) (٣) شخصية منميزة ، تحتاج الى تأمل دقيق ، **فهو باحث وشاعر ومثقف يعي دوره السياسي والاجتماعي** ، وهذه ليست جوانب متينة الصلة فيها بينها ، وليست هي اوجهها ، كل واحد منها يداعب زاوية مختلفة ، ولكنها تتداخل تداخل تمازج واختلاط ، فتجدها كلها في آن واحد ، انه لم يسع كي يكون شاعرا مفردا واعيا يأسى للواقع يتألم له ، ولا باحثا اكاديميا منكبا على الاوراق ، او مثقفا واعيا يأسى للواقع دون ايجابية من حركة ، وما هو بالسياسي المحترف ، ولكن ، **كل تلك الجوانب تتبلور في جوهر واحد يطل عليك مهما كانت الزاوية التي تنظر منها الى شخصيته،** فالسابق كله يهبنا نتيجة محددة لاتحتاج الى بذل مجهود كبير لتبرير او تفسير قولنا بأنه قد ادرك وحدد مبكرا دور الاديب المثقف في مجتمعه العربي ــ لا الاقليمي ــ وحمل قناعاته في كل ذرة من ذرات روحه ، واتبع هذا الادراك بالدعوة ، ومن الدعوة الى الحركة والعمل . . .

الناظر في حياته وفنه يجد مصداق ما نقول ، فبينما كانت النظرات الرومنسية تغزو الشعراء والادباء ، كان هو منغمسا حتى ادق عرق فيه في تلاطم امواج الحياة اليومية ، وليس ادل على ذلك من هذا الاضطراب والتنقل في البلاد ، لا تكاد تستقر قدماه على ارض ، **فالمغادرة والهجرة اساس عهده ، ان رضيت به الارض غادرها ، وان رضي جاءت الاحداث تدفعه خارجا ،** فقد ولد في الكويت وترعرع وتعلم وخطا خطواته الاولى فيها ثم غادرها ولم يعد اليها الا كما يعود الزائر بينما ترك قلبه في ثراها ، وفي بومبي ــ محطته الثانية ــ لا يصرفه كسب العيش عن التعلم وملازمة الحرف فيؤسس مطبعة ويتأمل صعوبة تعلم اللغة العربية فيثمر هذا بعد حين : دراسة عن « علاج الامية في تبسيط الحروف العربية » .

ويعود الى وطنه العربي مرة اخرى ليلقى بعصا ترحاله في البحرين وفيها مارس التعليم ، وعاش حياتها السياسية موثقا صلته باحرارها ، فكان الحصاد ان غادرها منفيا ، ليعود الى الكويت ثم يهاجر الى السعودية فرحب فيه الملك عبد العزيز بن سعود لينعم هناك زمنا ممتدا حتى قبيل وفاته بسنتين حيث انتقل الى دمشق .

هذا هو خالد الفرج المثقف الاديب ، وهذه تحولاته المختلفة تقدمه كانسان عاش في قلب احداث عصره معبرا ومشاركا حتى توفاه الله .

وقد تشكل ادبه في صورة هذه الحياة ، فشعره مثلا سجل لها ، ونجده يسعى للوصول الى فكرته من اقرب الطرق لينفذ الى موضوعه والى الناس من بعد ، وهذه السهولة واضحة لانها نابعة من الهموم اليومية التي يعانيها مجتمعه ، وادبه ليس ادب مناسبات ـــ في المفهوم الضيق ـــ ولكنه ادب تعبير عن تصور وفكر محدد نابع من ذاته التي احاطت بهموم هذه الامة بعيدا عن الحدود الشخصية والاقليمية .

وكما كانت الحياة جاء الادب ، ليس نسقا واحد او وترا واحدا يعزف عليه، ولكنه يبحث دائما عن وسيلة بعين طامحة ، فكما كتب القصيدة العربية التي سارت على النظام الاصيل الموروث ، نجده يوظف من جهة اخرى اشكالا عديدة فيحاول الملحمة ـــ مثل ملحمة احسن القصص والتي بقيت ناقصة ـــ وفيها تناول سيرة الملك عبد العزيز ، وهذا بدوره يقوده الى كتابة السيرة ... وليس هذا فقط ولكننا نجده في داخل القصيدة ذاتها ينزع الى محاولة ادخال النظام القصصي في قصائده ، وقد عرضت لهذه النزعة في دراسة خاصة(٤) ، وهذا ما يعنينا في هذه المقدمات ، حيث هدتنا الى ان اتجاهه للفن القصصي مثل نزعة اصيلة يكشفها ادبه كله ـــ وخاصة شعره ـــ وهذه كلها كشفت عن وعيه وتنبهه لما هو سائد في الساحة الادبية انذاك . وستبقى هذه المقدمات في الذهن هادية لنا في استشراف مجاهل هذا النص المبكر ..

* * *

وناتي الان الى هذا النص القصصي ، (منيرة) ، حيث تحكي لنا قصة فتاة جميلة خارقة الجمال من حيث الشكل والقشرة ، ولكن في داخلها قلبا ساذجا ودماغا مملوءا بالخرافات ، فايمانها عميق باحاديث العجائز ، سريعة التصديق والانقياد . واضف الى هذا انها أمية ومكسال خرقاء ، شغوفة بالزينة ، خاضعة لحكايات كرامات الصالحين وخوارق الزار ... الخ .

هذه منيرة كما قدمها لنا الكاتب . وواضح انها نتيجة طبيعية لبيئتها التي لم تكتف بالسابق حين شكلت عقلها واطرته بهذا الاطار المحدد ، ولكنها ايضا شكلت وجدانها وحددت طريق سير عاطفتها مستقبلا بدقة متناهية ، فالقرار سابق لادراكها ووعيها فرسموا وقالوا : انها زوجة لابن عمها مهما كانت الظروف ، فادلة « المؤمنين بنظرية الحظ والنصيب متوفرة في الشرق ومن اقواها ان منيرة من حظ ابن عمها الذي ولد قبلها بسنتين وكتبت في سجله منذ الازل » ، فكان على العاطفة ان تنشأ ضمن انها زوجة لعبد القادر ، وهذا بدوره جعل القبول منفذا اليها عن رضى ودون اختيار ، وعند الزواج تحول هذا الرضى الى الفة فمودة « والمودة الى حب حقيقي هو حجر فلاسفة العشاق والحب الذي يسعون للحصول عليه » !!

وهكذا تلاحظ كيف سجل الفرج بسخرية واضحة تحول الجبر الى اختيار والاكراه الى ارادة . كل شيء مرسوم بدقة في هذه البيئة !

وعاشت منيرة بعد ذلك في خيالات الحب والخرافة ، ولكن الواقع أكبر من ارادة البيئة ، فالامل والحلم بطفل يضفي على منيرة بشرا واشراقا ، تحول الى نقيضه ، فالزواج ثمرة لم تأت بعد ، وهاهي سنوات ست تمضي ، وتبـــدا الوساوس .

وفي لحظة انس ومداعبة حول شيبة بدأت تغزو راس الزوج عبد القادر ، يأتي البشير بخبر ولادة طفل لاختها التي تصغرها .

ويأتي التحول الحاد بينها وبين زوجها ، الذي كان قد اعد العدة لغلام يرث ثروته ، يبدأ صدام المنطقين ، فهي ترى انه هو السبب لانه استعد للشيء قبل حصوله ، فجعل مشيئته قبل مشيئة الله فعاقبه على ذلك بالحرمان ، وبينما يستند هو في رايه على العلم ، وان سر الحمل في المراة ـــ تذهب هي الى كشف رايها ، مؤكدة ان السبب ـــ كما ذكرت الشيخة ام صالح ـــ هو ان زوجها رجل عصري ملحد لا يعتبر الاولياء ولا ينذر للقبور . ويشتد هذا الجدل بين هذين المنطقين المختلفين واللذين يقدمان وجهة الصراع الدائر آنذاك ، ويلوح الزوج بالزواج من اخرى .

وتتضخم هذه الفكرة في راسه وهو يناجي نفسه كاشفا لنا أن الجمال لـــم يعد يخفي الجهل والدماغ المحشو بالخرافات والاوهام ، وانه لا فائدة من طفل ينمو في هذه البيئة الجاهلة ، ويكشف عن رغبته في فتاة كانت متعلقة به ، وهي جميلة ومتعلمة ، وسيبقى منيرة يتمتع بجمالها ويضحك من سذاجتها .

ومع ان الزوج قد حجر عليها ، فان منيرة راحت تحل مشكلتها علـــى طريقتها ، ملقية نفسها بين أيدي الاولياء ، فكانت النتيجة ان استدرجت الـــى الغابة حيث يقيم الولي الابكم ومعها اثمن مجوهراتها ، وهناك تترك وحيدة وقد استولى هؤلاء المحتالون على ما معها ، حينئذ ادركت معنى كلمات زوجهـــا ، ولم تجد امامها الا ان تلقى بنفسها في البحر منتحرة .

هذه هي خطوط قصة منيرة الرئيسية ، ومع ان الاستاذ عبد العزيز الرشيد بشر بها كرواية ، فلا نستطيع الجزم بأنه يقصد المعنى الاصطلاحي الذي نعرفالان فان هذه القصة قد اكتملت اطرافها ، وان التذييل الذي جاء بعد اخر سطر مشيرا الى ان لها بقية لن يصرفنا عن القول من ان خالد الفرج قد انصرف عن تكملتها ، ولعله قد احس ان هذه النهاية حاصرته فلم يستطع ان يتم او ينشر البقية التي اشار اليها .

والان لننظر الى القصة من الداخل لنرى الكيفية التي صاغ بها الفرج هذه التجربة الاولى ، ودرجتها في مضمار التطور القصصي في الخليج .

بادىء ذي بدء استطيع القول ان هذه القصة ــ حين النظر في ظرفهـا التاريخي ــ قد ولدت وهي تبشر بنضج مبكر لم تبلغه كثير من القصص التي كتبت بعدها بعشرين سنة او اكثر ، فاذا كانت الزاوية التي اختارها المؤلف كثيرة الطروق من عدد من المؤلفين فان الدخول في الموضوع وطبيعة التناول والاعتماد على الايحاء ، واسلوب العرض المتميز ــ كلها نقاط تحسب لصالح هذه المحاولة الاولى ، كما اننا سنلاحظ في داخلها من نقاط الضوء شيئا كثيرا ، دون ان نتجاهل ذلك التقصي في العرض والدخول في الجزئيات والتفاصيل التي تنوء بها القصة القصيرة .

ان ابرز ما نلاحظ هو ذلك الايحاء المشع الذي اثاره الفرج حول شخصيته الرئيسية ــ منيرة ــ فهي حقا تمثل امراة حقيقية ، ويمكن قبول هذا المستوى دون مناقشة تذكر ، ولكنه كفنان لم يحرص ــ بل لعله قصد ــ على استقصاء الجانب الواقعي للشخصية مع نزوعه اليه ، فالعبارات التي تصافحنا اول امر تشع بابعاد تتجاوز الشخصية المحددة الى الدلالة الواسعة ، وكأنه يوحي الينا من طرف خفي الى هذه الجوانب الموغلة بالعمق ، ونحس ان منيرة هذه هـي المرادف العميق لشمولية المراة وقضيتها التي هي قضية المجتمع ككل .

وهذا الطرح لقضية المجتمع من خلال المراة هو النزعة السائدة في تلك الفترة من الادب العربي الذي راى مصلحوه ان حرية المجتمع وتطوره لن يكون الا اذا تحرر هذا النصف المهم . لذلك نلاحظ الالحاح الواضح على اعطاء المراة دورها المتميز داخل الفن بعد ان عز في الحياة وكأنه يبشر بالامل المرجو والمنشود لها . وليس من المصادفة ان يكون للمراة هذا البروز في الروايات الاولى ، مهما كانت المواقف المختلفة ، فالتصدر واضح لها في رواية « زينب » لهيكل و « ثريا » لعيسى عبيد و « ساره » للعقاد .. الخ .

ولعله من المفيد ان نتذكر ان هذه النزعة التي سادت في الادب العربي آنذاك منحدرة انحدارا مباشرا من نزعة سبقتها في الادب الاوروبي ابان القرن التاسع عشر والنصف الثاني منه على وجه التحديد ، حين بدات قضية المراة تتخذ شكلها الحاد والواضح ، فنحن لانزال نتذكر صفقة (نورا) للباب في ختام (بيت الدمية) فكانت الصوت المدوي في الادب بالنسبة لهذا الموضوع ، وهذه الصفقة لم تكن الوحيدة ، فأعظم الاعمال الادبية في القرن التاسع عشر كان محورها هذا الموضوع مثلا ــ انا كارنينا ــ مدام بوفاري ــ تسى سليله دربرفيل،

فهو اذا موضوع ادبي اصيل ، وروائي بالدرجة الاولى ، ومع واقعية التناول في كثير من هذه الاعمال الادبية فان هذا لا ينفي صلته الوشيجة بالنزعة الرومنسية، فاختيار المرأة كان يمثل جسا للجانب الهش من ذلك الماضي الذي يراد توقيضه .

ان هذا الاتساع الواضح في الدلالة كما عرضناه لا يمثل حدا مبالغا في الفهم ، بل انه قد يكون الحد الادنى لمفهومها الذي اشاعه المؤلف في عباراته ، وخاصة في بداية القصة ، فالعبارات لا تقدم شخصية بل دلالة مثالية لمعنى يريده ، وانظر الى هذه المقدمة كيف جاءت وتأمل عباراتها بعد ان وضعت لك من قبل خطوط القضية الرئيسية : يقول بعد العنوان ــ منيرة ــ : « تلك القوة المجهولة الخارقة الكامنة بين ذرات المغناطيس تجذب اليها القطع العديدة من المعادن : اشبه شيء بذلك الجسم الذي يمثل الشباب الغض والجمال الكامل فيجذب اليه حبات القلوب ونظرات العيون . تلك المجموعة الرائعة الجذابة مصوغة بصورة البشر اطلق عليها اهلها اسم منيرة . منيرة ؟ منيرة ! هي ما حاوله الشاعر في غزله ونسيجه . والمصور في ريشته ، والنحات في ازميله ، ان يعبروا عنها فعجزوا ، واتى الخالق القدير فأبرزه في جسم بشري حي اسمه منيرة ، وان تدفق مياه الحياة في اسارير المحيا ، وفي غضاضة الصبا وطراوة البشرة ، وسحر العيون وبريقها الخاطف والابتسامة الحلوة ، والقد في اعتداله وميلانه وتثنيه ، لمعان سامية دقيقة تقصر دونها تعابير البشر ، اللهم الا اذا كان في الملائكة شعراء وفنانون فذلك ما لم نعلم عنه شيئا بعد .

منيرة رمز الجمال وتمثاله ولكن الخالق الحكيم لا يعطي احدا جانبا من الكمال الانساني الا وينقصه من جانب اخر لحفظ التوازن . والانسان طاغ بطبعه ، فلا بد له من نقص يشعر به ليتعظ ، ذلك الجسم الكامل الجميل يضم بين جوانحه قلبا ساذجا ودماغا مملوءا بانواع الخرافات .. الخ » .

ان هذا الصدر الذي يلاقيك وانت تبدأ بقراءة القصة يدعوك حتما الى التوقف ، فليس هذا شاعرا يتلاعب باسلوبه ، ولكنه كاتب يسعى الى جذبك معه الى داخل موضوعه ، فانت هنا بين حدود متداخلة ، فهذا المثال الكامل الذي يشدك كالمغناطيس انما هو حاله الجذب او الشد الطبيعي الى المرأة ، ويطور لك هذا التصور حين يكون خيال الشاعر والمصور والنحات ، يقدم لك هذه المعاني السامية ليجسد من خلالها صورة الكمال الانساني ، وليوحي بشمولية هذه الشخصية وتجاوزها لحدود المشكلة ، او الحالة الفردية ، وما هي كذلك حتما .

واذا كان هذا هو الوجه السامي فانه يقدم لك ، في الطرف الثاني ، الوجه الاخر ، عناصر النقص ، والصورة المشوهة لهذا الجمال ، وهو تشوه عجيب

وذو دلالة نابضة بالتعبير الحي للمتأمل ، فكل الصور السابقة تقدم لك الشكل ، الاطار الخارجي الذي هو رسم الطبيعة ، اما عناصر النقص فتمس العمق والجوهر ، فعلى مستوى العواطف تملك قلبا ساذجا ، اما عقلها فقد عطلته الخرافات ففقد عنصر التفكير والاستقلال ، فهو سريع التصديق والانقياد ، وهذا حطم العنصر الانساني فيها ، ومن البداهة اذا ان هذه ليست هي صورة منيرة الشخصية المحددة ، ولكنها منيرة النموذج المعبر عن المرأة ، **وما اشبه هذه الصورة بنورا (بيت الدمية) ، مع حفظ الدرجة والنوعية ، فكلتاهما دمية للعبث، كانت منيرة دمية غير واعية ومحطمة وشخصيتها متداعية ، لذلك كان اكتشافها لحقيقتها جارح فلم تجد امامها الا الموت هربا من مصيرها ، اما نورا (ابسن) ، فعندما اكتشفت حقيقتها كانت درجتها الحضارية تسمح لها بأن تتحدى وتواجه ، فهي نموذج تحول عند الاكتشاف الى التحدي** ، وبداهة ان هذا ليس مصير النماذج الاخرى في الادب الاوروبي (انا كارنينا ـ مدام بوفاري) ، وسنلاحظ ايضا الشبه بين الرجال ، فعبد القادر زوج منيرة لا يختلف عن (هيلمر) في تطرفه رغم الزعم ، بعصريته ، فعندما اصطدم بها كان تفكيره منصبا على الزواج من اخرى والابقاء عليها متعة « ستبقى عندي وسأتمتع بجمالها واضحك على سذاجتها » . وهذا الالحاح الى الربط ليس القصد منه البحث عن النقاط المتقاربة او المستوى الفني الواحد ، ولكن اشارة الى طبيعة الموضوع الواحد ، ولكن دعني اوغل قليلا لانبهك ـ يا للصدف ـ الى هذا التقارب اللفظي بين نورا ومنيرة .

وهذا بدوره يدفعنا الى التوقف عند هذه الدلالة او الايحاء اللفظي ، فشاعر يحسن التعامل مع الالفاظ لن يكون اختياره للاسم ـ منيرة ـ صدفة او تسمية مسطحة ، وهذا واضح من توالي الصفات ، وتلاعبه حول الاسم داخل النص حين يربط بين اشعاعه والتأملات ، وهذه الدلالة ان كانت تعطيك جانب الضوء والانارة ، فانه من جهة اخرى يعطيك اشعاع النقيض ، فنور الشكل تحول في الصورة الاخرى الى ظلام الجهل ، وعن طريق هذه المخالفة في مفهوم اللفظ يصل الكاتب الى اهداف شتى آتية من طبيعة التناول الفني المتميز .

والكاتب كما احسن رسم هذا الاطار ، استطاع كذلك ان يتعامل مع الاحداث ، وتناميها ، تعاملا مقبولا، فقد قسم قصته الى اربعة اقسام ، ولم يكن تقسيما اعتباطيا او شكليا ، ولكنه تقسيم يشير الى معاني التوقف والمعاودة ، ففي القسم الاول رسم الشخصية واشاع حولها ذلك الجو الايحائي الذي ذكرناه ، وقدم وجهي العملة فيها ، وحدد الظروف الخارجية القسرية التي تحكمت في المصائر ثم اسلمنا الى الطرف الاول من الخيط .

وبدا القسم الثاني وفيه اشارة الى مرور الزمن ، وبه فجر المشكلة المحورية

التي ستكون محلا للاحداث ، وقد اختار هذه المشكلة من امكانات البيئة وهي ايضا داخلة في الجبر والاستسلام ، فالعقم شيء خارج عن الارادة ، وكأن المؤلف يريد في اختياره لهذه المشكلة ان يقدم لنا تحديات الجبر المستمرة بحيث انعدم عنصر الاختيار الحقيقي .

ومع هذا القسم يبدأ الدخول في الاذهان لدراسة المنطق الذي يسود داخل هذا الاطار المتخلف ، ويبدأ بعبد القادر الزوج ، الذي يكون تصوره قاصرا واقفا عند حدود الذاتية البحتة ، فهو ينظر الى المشكلة من زاوية الحصول على الولد مع الابقاء على تمتعه بجمال زوجته ، فقد قدم الحل فقط لمشكلته الخاصة وانتهى دوره .

ويأتي القسم الثالث متابعا اتجاه الافكار او فكر منيرة بالذات ، والتي تواجه المشكلة بمنطق الجهل الذي عرفنا به ، الغيب والسحر والشعوذة ، وفيه اعداد العدة للبحث في هذا الطريق .

ويأتي القسم الرابع فتبلغ الاحداث ذروتها ، فها هي منيرة تذهب في رحلة المجهول فتسقط في اسار الخداع ، وعندها تكون النهاية المحتومة . **اذا فالاحداث كانت تتنامى في خط صاعد ثبتت فيه يد الكاتب فاحسن التعامل مع احداثه ، ولو رسمنا خطا بيانيا للاحظنا هذا التصاعد فالانكسار بوضوح .**

واذا كانت الاحداث قد سارت في هذا التطور والنمو فان طبيعتها ونوعيتها تستدعي التوقف والمناقشة ، فالذي لا نماري فيه ان الحدث الرئيسي نابع من البيئة المحلية ، وليس في هذا اي عجب ، خاصة وان المؤلف قصد شيئا محددا اصلاحيا في منحاه ، ولكن عند انكشاف الخدعة ووضوح الرؤية عند بطلة القصة ، عند نقطة النهاية تضطرب الاحداث ، بل تفلت من يديه ، فلحظة التنوير والوعي محكمة ولكن اتجاه الاحداث هو الذي يستدعي هذا التوقف ، **فالمؤلف لم يستطع ان يعثر على طريق يختم به احداثه متصورا ان عليه متابعة مصير الشخصيات حتى اخر لحظة ، وان هذا واجب تقتضيه تطورات الاحداث ، فلم يجد الا الانتحار** ، محاولا ايجاد مبرراته النفسية وذلك بالجمع بين فاجعة اكتشاف الحقيقة والضغط العصبي والجسدي حين قال (وتوالت عليها الافكار من كل جانب ، ودب اليأس الى قلبها ، وزادها السهر والتعب ضغثا ..)الخ.

ولكن هذا لايزيد عن كونه تبريرا ومحاولة لوضع الانتحار في اطاره الموضوعي ، اما الذي اعتقده فان هذا الحل انما هو من ترسبات النزعة السائدة في الادب ابان تلك الفترة ، حيث محاولة تجسيد الاحداث ضمن الفجيعة ، فهو تصور رومنسي غربي نادر الحدوث في مثل هذه الصورة ، **وعندما نسأل انفسنا**

لماذا انتحرت منيرة : هل لانها خدعت ؟ ام لانها فقدت مالها ، ام لعصيانها زوجها ، ام اكتشافها لحقيقة نفسها هو الذي شدها الى هذه الفاجعة ؟ عندما تدقق ستجد انه ليس هناك ما يستدعي هذه النتيجة .

اذا فهذا الانتحار من بقايا التكوين الثقافي اكثر من كونه تصورا نابعا من داخل الاحداث ، وهو يذكرنا بمحاولة اخرى للفرج نفسه في قصيدته (الشاعـــر او قصة مبتورة) حيث ينتحر الشاعر دون تبرير واضح سوى تلك النزعة التي سادت في الساحة الادبية انذاك ، فبطل قصة مبتـــورة لا تفسير لانتحاره الا الاحباط الذي مني فيه في بيئته .

واضح ان المؤلف قد رسم احداثه بدقة لتصب في هذا المجرى الذي هو مصير للطريق الخاطيء ، وهو كما وظف الاحداث هذا التوظيف الواعي ، فـــان اختياره للشخصيات جاء ليتلاءم مع هذا الخط ، وهي شخصيات قليلة ، هرم قاعدته منيرة ، وما بناه الزوج عبد القادر والشيخة صالحه ، وهذان هما سبب ضياعها ، فالزوج ، والاشارة الى عصريته لاتعني شيئا كثيرا ، خاضع وضائع في آن واحد ، ولا يختلف عنها كثيرا ، فكما ان الجبر كان سبب مشكلتها فانـــه ايضا خاضع للجبر نفسه ، فاستجاب لمتطلبات السائد من التقاليد ، فكما كان من المقرر ان تتزوج من ابن عمها ، فهو ايضا في الطريق الاخر يجب ان يخضع لهذا الاعتبار .

ويضاف الى هذا كله طريقته في التعامل مع الاحداث فقد ترك زوجته على جهلها مخرجا نفسه من دائرة المشكلة ، فالحل عنده يعني الزواج من اخرى ، ولا ندري هل هو يعيب عليها عقمها ، وقد لا تكون هي وحدها المسؤولة ، ام يعيب عليها اللجوء الى الزار على مشهد منه دون ان يبذل اي مجهود .

لا شك ان للفرج في اختياره لهذا النموذج كان يجسد مشكلة هذا الضياع في البيئة مع اطرافها المتعددة .

اما الشيخة ام صالح فقد رسمها بصورة نمطية ساخرة ، مشيرا بوضوح الى عناصر المكر ، فهو ينظر الى هذه الشخصية من الخارج مشدودا الى طبيعة معالجته الاصلاحية ، ولم يتخلص من نزعته التهكمية الخارجة عن اطار التناول القصصي ، فهذا الوصف مثلا : « عادت ام صالح واتت تمشي على عكازها وقد رفعت رداءها بكوعيها ورأسها المنحني فصارت اشبه شيء بغطـــاء عربـــات الاطفال .. » وقوله : « لولا ان العجوز اخذت بضبعيها واضطرت الى نصب قامتها المنحنية مكرا وحيلة » ، فهذا الوصف وان كان دقيقا فمـــن الواضح ان الكاتب لم يكبح زمام تدخله الوعظي ، **فهذه الشخصية هي اقل الشخصيات قيمة**

من الناحية الفنية مع انها نمط بشري يستطيع الكاتب اليقظ ان يتحـــرر من الاستدعاء الذهني المباشر لها وان يطورها بحيث يعتصر اهم جوانبها الفنية العميقة ، وهذا مالم يستطع ان يصل اليه الفرج كل الوصول ، فقد طغى تحامله الواضح على هذه الفئة ، التي اراد ان يعريها ليسقطها من المجتمع فأعطـى لقلمه حرية التهكم والوعظ ، وهذا ما لم يفعله مع شخصياته الاخرى ، فموقفـه من منيرة موقف المحب المعجب المتألم لوضعها لانه يرى فيها صورة للمرأة فـي الخيال والواقع ، فاستقصى الجانبين وكان توازن عاطفته بين الاعجـاب والنقد هو الذي جعل لشخصية منيرة هذه هذا البروز . ومثل هذا فعل مـع الزوج عبد القادر ، الذي قدمه شخصية مستوية البناء تداخلت فيها عدة عناصر كشفت طبيعته الانسانية الواقعية ، فليس هو ذاك الجاهل المتأخر كما انه لـم يكن ذلك العصري بمواقفه وفهمه للحياة النبيلة ، ولم يكن ذلك الرومنسي المدله ، بل حمل في داخله واقعية صرفة تصل الى النزعة الطبيعية ، بل ان انعكاس ممارسته للحياة كرجل ثري يعتمد على الحساب والثروة انعكست على سلوكه الذي لم يكن صداميا في اوله حين الزواج ، كما انه تعامل مع المشكلة تعامـل التاجر ومن منظور الربح والخسارة ، فرسم اطار الصفقة بما يحقق له الربـح الخالص .

لا شك ان هذا التناول لهذه الشخصيات كشف لنا عن قدرة خالد الفرج على التحرر مما هو سائد ، وانه كاتب يملك الحيادية الفنية حين يعطي لانماطـه البشرية حقها بالظهور ، وقد نجح في تجاوز النزعة الاصلاحية الاساسية ، التي انشأ لاجلها القصة وان اطلت بين حين واخر كما وجهت الاطار العام للقصة .

وشيء اخر يحسن التوقف عنده هو الاطار ، او الاسلوب او الجو الذي اشاعه الكاتب في هذا العمل ، فالذي نلاحظه تداخل الاسلوب الشاعري الذي ينظر الى جمال الكلمة التجريدي ، وهذا ما نلاحظه في النص الذي عرضناه من قبل ، حيث تغلب النزعة التصويرية غير المحددة ، وهو اسلوب اكتسب من موضوعات الانشاء المعهودة ، وان استطاع الكاتب ان يربطه بما جاء بعد ذلك.

وبعد ذلك يسير تعبيره عن الاحداث تعبيرا طبيعيا متلائمـا مع سـير الاحداث ، وبدأت كلماته تتحد ضمن اطار شخصية معينة او حدث مقصود ، فتبدأ كل كلمة تأخذ دورها التعبيري المباشر عن جو القصة وسيرها العام .

ولكنه في فصل الختام يشده التعبير الانشائي ، بل ان الامر يزداد غلوا وبعدا عن طبيعة قصته ، فجو الغابة غريب تماما عن البيئة ، رسمه خيالـه المحض ، ولعله كان يستحضر حكايات الجان والمردة في القصص القديمة ، ونسي وهو الخبير ببيئته ان هذا الجو غريب كل الغرابة (٥) فالغابة واشباح

اشجارها واصوات السباع وفحيح الافاعي والحشرات،وكل هذا الجو الصناعي الغريب الذي اراد المؤلف ان يشيع في داخله الخوف ، مستخدما فيه ملكته التصويرية لا يتلاءم مع مسار قصته الاصلية ، وكان مستغنيا عنه بذلك الجو الذي رسمه لعمل هؤلاء المشعوذين والاجواء التي يحيطون بها انفسهم ، فقد تمكن في تصويره لهذا الجانب من اعطائنا جوا مقنعا لولا ذلك الاطار الغريب .

ان كل ما ذكرنا لا يعني شيئا ازاء التقدير الجدير به مؤلف هذه التجربة الاولى ، والتي كشفت عن موهبة لم تواصل استكمال ادواتها ، فبقيت النزعة القصصية اطارا يستخدمه الفرج بين حين وآخر في قصائده ومقطعاته الكاشفة للكامن من موهبة عزيزة خلفها المؤلف وراءه ، وقد شدته هموم الامة فغاص في دروبها ، ويا لها من دروب .

الهوامش

(١) يهمني هنا الاشارة الى باحثين جليلين اشارا الى هذه القصة ، اولهما الاستاذ خالد سعود الزيد الذي نبهني من مدة طويلة وأهداني نسخة مصورة حانا لي على الكتابة عنها ، وقد اقترحت عليه أن ينشرها فوعد ووفى حين ضمها الى الطبعة الثانية من كتابه خالد الفرج . اما الباحث الاخر فهو الاستاذ ابراهيم عبد الله غلوم الذي تعرض لهذه القصة وحللها في بحثه القيم عن القصة في الخليج .

(٢) في المحاولة القصصية المتميزة « حي بن يقظان »

(٣) فيما يتعلق بحياة وجهود المرحوم خالد الفرج انظر دراسة للاستاذ خالد سعود الزيد « خالد الفرج حياته واثاره » ، وانظر كذلك كتاب « ادباء الكويت في قرنين » للمؤلف نفسه ، ومنهما نستمد المعلومات التاريخية عن مؤلفنا .

(٤) انظر مجلة (البيان) سبتمبر ١٩٨٠ .

(٥) انظر المرجع السابق ص ١٢٣ .